قصة قصيرة

زمن الأحلام

هيام محمد

في ليلة.. حلمتُ أنّي أسرع في مغادرة الدار صباحاً.. كنتُ المسؤولة عن جرس المدرسة وقد تأخرتُ كثيراً مما جعل الشعور بالتقصير يسكنني ويثير فيّ الاضطراب.

لم أرتشف من كوب الشاي الذي أعدّته أمي سوى قطرات.. الشاي المهيّل والمجهّز بطريقة متقنة غير معقولة... البيضتان المسلوقتان ظلتا تشغلان فراغ الصحن الصغير دون أن ألمسهما.

على رصيف الشارع وقفت غير مرتاحة.. ساقي اليمنى تحتكّ بأختها اليسرى وتتململان.. سرعان ما انتهى قلقي في تأخير جديد إذ وقفت بجانبي سيارة أجرة.. جلستُ خلف السائق وبجانبي جلست امرأة بدينة كانت تربط شعرها بمنديل مخطّط أزرق غامق وأزرق فاتح.. لم تكن كبيرة في السن لكن تقطيبة عميقة ظهرت بين حاجبيها الأسودين أعطتها مظهراً أكبر... خصلات من شعرها نافرة من المنديل كانت مخططة هي الأخرى ولكن باللونين الأسود والأبيض.

رجل يجاور سائق السيارة بجلسته كان يدخن سيجارته نافثاً دخانها بطريقة تجعله يطير نحو وجهينا، أنا والمرأة بجانبي.

شعاع الشمس يسقط على الشارع الطويل مما جعل أرضه تبدو ملتمعة.. انسلّت أفكاري ببطء من البيت نحو المدرسة.. أطبقتُ جفنيّ دون مكابدة.. لكن.....

وقبل أن أستشعر قليلاً من الراحة تفجّر صوت صفارة الإنذار...

فزعتُ كأنّ لطمة قوية التصقت بوجهي.. زعيق ممدود طويل متقطّع وكأن الأرض تزفر صراخاً.

أسرعت السيارة، وكذا فعلت كل السيارات في الشارع حتى أصبحت شبيهة بسرب من الطيور المفزوعة.. شرطي المرور يحرك ذراعيه بسرعة مثل رجل آليّ وهو ينظم عملية المرور.

نظرتُ إلى وجه رفيقتي في الطريق فوجدت تقطيبتها قد ازدادت عمقاً، وخوفاً مثيراً يملأ قسماتها ويجعلها أكثر تجهماً واتزاناً.

فرمل السائق بقوة.. اندفعت المرأة لترتطم بي رامية ذراعها الثقيلة على صدري.

كنتُ أحلم.. قبل أن أستيقظ وحتى أثناء الحلم كنت أدري أنني أحلم.. حين استيقظتُ وجدت نفسي في فراشي أسمع صوت جرس التنبيه للساعة المنضدية.. ابتسمتُ لنفسي وأنا أفكر بأمّي.. استرجعتُ حلمي ووجه رفيقة الطريق التي ارتمت فوقي وكان يشبه وجه أمي...

إنها في المطبخ الآن تجهّز الشاي اللذيذ بنكهة الهيل العطرة، وتسلق لي بيضتين لا آكل إلّا واحدة منهما.. ترتشف قهوتها وتنتظرنا أنا وأخي لنفطر أمام عينيها.. كم مرة طلبت منها البقاء في سريرها... فأنا قادرة على تجهيز الفطور بدلاً عنها، لكنها كانت ترفض بشدة.

تململتُ.. الفراش دافىء وجسدي ملتحم به...

لكن أنفاسي مازالت مكتومة كما كانت في الحلم.. قفزتُ ملسوعة بخوفي حين اكتشفتُ ذراعاً حقيقية ثقيلة ترقد فوق صدري مثل صخرة.. تعثرتُ بكرسي ووقفت أحملق بالغرفة نصف المظلمة بسبب الستائر السميكة التي تغطي النافذة.

الغرفة غرفتي لكن أثاثها ليس أثاثي.. حملقت بالفراش فإذا بجسد طويل لرجل غريب يحتله..

«ـ مَنْ هذا؟».

اقشعرّ بدني وأنا أفكر بالغريب الذي ينام في فراشي..

ركضتُ إلى المطبخ.. إلى أمّي.. لكن تيار ماء ثلجياً انسكب

فوق رأسي فغمرني.. ارتعشتُ وأنا أجول بنظراتي.. المطبخ ساكن، خال من أمي ومن كوب الشاي والقهوة الخالية من السكر، ومن البيضتين المسلوقتين..

تراجعت مخذولة.. مررتُ بغرفة الجلوس.. أرائكها جديدة، ضخمة، وفيها بينها تتوزع باقات جميلة من الورود الورقية البّراقة..

الغرفة غريبة...

إذن..

لم أستيقظ من نومي.. أو بالأحرى كنت يقظى، أما الآن فأنا أسيرة نوم مكتّظ بالكوابيس...

في لحظة تذكرتُ أخي.. هرعتُ لغرفته واقتحمتها مثل صاروخ...

لكن لم يواجهني إلاّ السكون والفراغ الصامت بلا رحمة.. الفراش كان خالياً من التجاعيد، والغرفة موحشة.. مكتئبة كأنها وجه امرأة استراحت لتوّها من نوبة بكاء شديدة..

فهمت، وازداد يقيني.. صفارة الإنذار كانت حقيقية، وكذا قناع وجه أمي الذي الصقته المرأة البدينة على وجهها.. كوب الشاي الذي لم ارتشف منه إلاّ قطرات... أما الآن فأنا محاصرة بكابوس.. أنام في غرفة غريبة مع رجل مجهول يغويني بقطع أثاث جديدة يزرع فيها بينها ورداً غير طبيعية.. عدتُ إلى الغرفة وأنا أطمس صوت قدميّ في نسيج السجادة الصوفية المفروشة أمام السرير... ينتفض قلبي بعنف ويملأني بنبضاته، فأسمعها بأذنيّ ورأسي، وبأصابع كفيّ المرتجفة.

تقدمتُ ومعي أمل صغير.. أن أدخل الغرفة فأجدها غرفتي الحقيقية.. لكنني رأيتُ الرجل يغط في نومه..

رجل في حلمي...

تفحصتُهُ وتساءلتُ في نفسي..

ما دام رجل أحلامي.. لمَ أجده مختلفاً عن فارس الأحلام الذي عاش في خيالي أبداً؟

تأملتُه خائفة.. مترددة.. رفعت رأسي فتوقفت عيناي على صورة.. يتألق فيها الرجل ببدلة سوداء أنيقة ويحتضن امرأة جميلة بثوب زفاف أبيض طويل.. امرأة مبتسمة بوجه مشرق... اعتراني الضعف والشحوب وأنا أنظر إلى وجه العروس فأجده وجهي.. سعيداً مشرقاً مزهواً بتاج الورد الذي يطرّز خصلات الشعر حواليه..

خطفتُ لي ثوباً معلقاً وانسللتُ بحذر إلى غرفة أخي.. غيّرتُ ملابسي وركضتُ إلى الطريق...

أين أمي؟..

أين بيتنا وحياتي الحبلى بالآمال والفرح والسعادة؟

كل امرأة التقيتها في طريقي كانت تحمل وجه أمي.. فقد رأيتها تسير في طريقي.. قريباً مني.. ورأيتها جالسة داخل السيارات التي مرقت بمحاذاتي جميعاً، وواقفة أمام كل الحوانيت التي عبرتها وأنا أسير متسكعة بقدمين مغلولتين بخوف مجهول.. لم أصل بيت أختي الكبيرة إلاّ بعد عناء.. رفعتُ إصبعي نحو جرس الباب وضغطت دون توقف..

أطلّ عليّ وجه أختي متزاحماً مع وجوه زوجها وبناتها...

استقبلتني بصوتها الأمومي الملهوف:

ـ ما الذي حصل؟ زوجك!! هل هو بخير؟

لم يكن بإمكاني أن أريق الدموع المحبوسة بين جفوني، فالذهول الذي سيطر عليّ كان أقوى من دموعي...

ـ أين أمي؟

سألتُها بوهن..

ـ ماذا؟

ـ أمي.. لم أجدها.. حتى أخي لم ينم في غرفته ليلة أمس..

ـ هل أنتِ مريضة؟

صاح أخي وهو واقف أمام باب إحدى الغرف يفرك عينيه الناعستين..

كان يصرخ كأنه يتهمني بالجنون...

ـ أنتَ هنا!!..

شفتاي ترتجفان وجسدي يرتعش فقد شعرت بالتجمد.. تلقفتني ذراعا أختي نحو الداخل.. جرعت فنجان القهوة الساخن فاحترق بلعومي.. فتحتُ فمي لألتقط هواءً بارداً فلقمني أخي بسخريته:

ـ لعل زوجها ضربها..

ضغطتُ على أسناني.. عيناي تلسعاني وهما تتفحصان وجوههم وهي تأسى لي.. كل وجه يعبّر عن أساه بشكل مختلف..

قالت أختي ملتاعة:

ـ استريحي اليوم عندنا.. سأتصل بمدرستك...

سيطر عليّ يأس كبير.. انتهى السلام الذي ظلّل عمري مثل خيمة..

لو حكيتُ لهم عن حلمي ويقظتي لتصوروا أنني مجنونة، ولأجهشت أختي بالبكاء...

تُرى: هل يمكن أن تكون حياتي قد تحطمت، وانتهى الفرح منها إلى الأبد؟...

اختلستُ إحدى البنات الصغيرات وكانت في العاشرة من عمرها... أجلستُها بجانبي ومسّدتُ على شعرها...

عيناها الطويلتان تحملقان بي بقليل من خوف.

سألتُها وفتافيت أمل تتعثر فوق شفتيّ:

ـ حبيبتي.. قولي لي: أين أمي.. جدتك.. والدة ماما؟

أجابتني ببراءة وبلا تردد:

ـ جدتي ماتت يا خالتي.. هل نسيتِ؟ ماتت قبل أن تتزوجي..

دون قصد منها غرست خنجراً صدئاً في صدري وابتدأت بالحفر... تظاهرتُ بالنعاس... أسبلتُ جفنيّ... لم أطلب منها أن تتركني وحدي، لكنها ابتسمت وغادرتني. تمددتُ في فراش الصغيرة

وتقلبتُ.. هواجسي كانت تخزني في كل جوانب جسدي وتشعل فيّ الحرائق... قبل لحظات كنت متجمدة مزرقّة، والآن تشبّ النار في أعماقي ملتهبة ومحاصرة داخل جسدي...

همدت حركتي تدريجياً وتسلل الحذر إليّ كأنني لم أنم منذ ليال.. لفّني النعاس والخمول بالظلام.. قبل أن أنزلق بين موجاته التمع في رأسي سؤال أضاء ذهني وبدّد ضبابية أفكاري...

كيف هي العلاقة التي تربطني بالرجل الذي تركته نائماً في بيتي؟.... هل يحبّني حباً متميزاً كما تمنيت دائماً أن يفعل الرجل الذي أرتبط به؟

قررتُ العودة إلى بيتي والتعرف على حياتي الجديدة وعلى شريكي فيها... انسللتُ خارجاً.. طريق العودة كان أقصر...

ترددتُ قليلاً، لكن الفضول والرغبة في معرفة الرجل المدعو «زوجي» كانا يجرّاني بقوة كما تجرّ الخيول الفتيّة القوية عربات أصحابها.

وضعت المفتاح في ثقب الباب بيد مرتعشة.. ضوء الشمس يغمر الدار.. لحقت شعاعه الممتد نحو غرفتي، لكنني سمعتُ صوتاً سمّرني في مكاني..

استدرتُ..

كان صوتاً تصدره عادة ربة البيت حين تؤدي أعمالها المنزلية... التقطته أذناي واستوعبه عقلي ثم امتصته مسام جلدي.. شربته وأسكنته أعماقي..

أسرعتُ إليه.. إلى الصوت.. صوت جسد يتحرك.. صوت أنفاس امرأة منشغلة بعمل ما، فقادني إلى المطبخ.

تلقفتني رائحة الشاي المهيّل فرميتُ بنفسي إليها..

كانت أمي ترتشف قهوتها، وبيضتان مسلوقتان تملآن فراغ صحن صغير قرب كوب الشاي المجهّز لفطوري.

بغداد

صدر حديثاً للشاعر

الياس لحود

الإناء والراهبة

منشورات دار العلم للملايين